مجلة التعليمية
ISSN: 2170-1717
EISSN 2602-6015

المجلد 15 / العـــدد: 02 (2025)، ص 456 – 466

الرواية النسوية كفضاء لتفكيك الأنساق الثقافية: رواية "عايشة " لحواء حنكة أنموذجا.

feminist novel as a space for deconstructing cultural systems: the novel “Aisha” by Hawa Hanaka as a model.

أميرة يحه *	نبيل حويلي
جامعة أبو القاسم سعد الله الجزائر 2 (الجزائر) مخبر الترجمة والمصطلح.	جامعة أبو القاسم سعد الله الجزائر 2 (الجزائر)
amira.yaha@univ-alger2.dz	Nabil.Haouili@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2025/06/25 تاريخ القبول: 2025/09/19 تاريخ النشر: 2025/12/26

ملخص:

تمثِّل الرواية النسوية فضاءً فريدًا يعكس التوترات والتحديات الثقافية التي تواجهها المرأة في مختلف المجتمعات، حيث توظَّف السرديات الأدبية كأداة لتفكيك الأنساق الثقافية السائدة وفضح مظاهر الهيمنة الذكورية . وفي رواية عايشة للكاتبة الجزائرية حواء حنكة ، تتجلَّى هذه الدينامية بوضوح ، إذ تسلِّط الكاتبة الضوء على قضايا المرأة المسلوبة الإرادة ، والمحاصرة بين تقاليد متجذرة ومعوِّقات اجتماعية صارمة .ومن خلال شخصية "عايشة" التي تمثِّل " العينة الصامتة " ، تبرز الرواية كيف يمكن للمرأة أن تتحول إلى صوت مقاوم وفاعل في مواجهة الهيمنة الذكورية . وعليه ، نطرح الإشكالية الآتية:

-كيف تُسهم رواية " عايشة " لحواء حنكة في تفكيك الأنساق الثقافية المهيمنة ، وإعادة صياغة مفهوم الهوية النسوية ؟

الكلمات المفتاحية : الرواية النسوية ، الأنساق الثقافية ، الهيمنة الذكورية ، التفكيك ، عايشة ، الهوية النسوية .

Abstract:

The feminist novel represents a unique space that reflects the cultural tensions and challenges facing women in different societies, as literary narratives are used as a tool to dismantle prevailing cultural systems and expose manifestations of male dominance. In the novel Aisha by the Algerian writer Hawa Hanaka, this dynamic is clearly evident, as the writer sheds light on the issues of women who are robbed of their will, trapped between deep-rooted traditions and strict social obstacles. Through the character of Aisha, who represents the "silent sample", the novel shows how women can be a resistant and effective voice in the face of this dominance. Accordingly, we pose the following question:

- How does the novel "Aisha" contribute to the atmosphere of Hanaka in dismantling dominant cultural systems and reformulating the concept of feminist identity?

* أميرة يحه amira.yaha@univ-alger2.dz

Keywords: feminist nove; cultural systems; male dominance; deconstruction; Aisha, identity.

.مقدمة:

مما لا شك فيه أنَّ الحديث عن الأدب النسوي يستدعي بالضرورة الوقوف عند الدور المحوري الذي تؤدِّيه المرأة في التعبير عن ذاتها وتجاربها عبر الكتابة ، وما تنطوي عليه هذه العملية من مساهمة فعَّالة في تشكيل وعي جماعي بقضاياها الاجتماعية والسياسية والثقافية .فالأدب النسوي لا يُعدُّ مجرَّد جنس أدبي يعالج قضايا المرأة ، بل هو ممارسة ثقافية مقاومة ، تسعى إلى مساءلة البنى الذكورية المهيمنة ، وتفكيك التصورات النمطية التي تُكبِّل المرأة وتحدُّ من حريتها . إذ يتناول هذا الأدب موضوعات متعدِّدة مثل : التمييز الجندري ، والهوية ، والحرية ، والمساواة ،والاستقلالية ، ويُعدُ– وفق ما تؤكده بعض الدراسات النقدية – مجالا فاعلاً في إنتاج المعاني والقيم ، لا مجرد انعكاس لواقع المرأة . كما يسعى هذا الأدب إلى تفكيك الأدوار النمطية التي تفرض على النساء داخل مختلف البنى الاجتماعية ، من خلال مساءلة التمثيلات التقليدية للأنوثة والهوية النسوية ، وطرح بدائل تعزز الوعي بالذات والحرية و" **هذا هو سبب اهتمام النسويات بالأدب بوصفه خبرة ثقافية مؤثرة متجسدة في مؤسسات قوية ، إنهن مهتمات باكتشاف كيف أن الأدب – بوصفه خبرة ثقافية – ليس مجرد أداة تعكس واقع الحياة الفعلية للنساء في نصوص أدبية ، فهو مؤثر في إنتاج المعاني والقيم التي تكبل النساء بقيد عدم المساواة** "[1]، وتجدر الإشارة إلى أن الأدب النسوي لا يشترط أن يكون من إنتاج النساء فقط ، بل يمكن للرجال أيضا أن يسهموا فيه ، متى تناولوا قضايا المرأة من منظور نقدي تضامني ، غير أن المرأة الكاتبة تبقى الفاعل الأبرز في تشكيل هذا الأدب ، نظرا لما تحمله كتاباتها من صدق التجربة وعمق التمثيل .

وقد عرفت الكتابة النسوية منذ نشأتها تحوُّلاً نوعيًا في أدواتها وتعبيراتها ، حيث تجاوزت حدود الشعر والمقالة لتجد في الرواية وسيطًا سرديًّا أكثر قدرة على احتواء قضايا المرأة ومعاناة وجودها في مجتمع يكرِّس الذكورة كمعيار وحيد للهيمنة والسيطرة . وبهذا أصبحت الرواية النسوية صوتًا مضادًّا للهيمنة ، يعيد الاعتبار لتجارب النساء ، ويُضيء المسكوت عنه في فضاءات الحكي والتاريخ والهوية .

أما في السياق العربي ، فقد تأخر ظهور الأدب النسوي مقارنة بنظيره الغربي ، حيث برز بوضوح في النصف الثاني من القرن العشرين ، متأثرًا بالتحوُّلات الاجتماعية والسياسية التي شهدتها المجتمعات العربية ، وجاء استجابةً للتحديات التي تواجهها المرأة العربية في سعيها نحو نيل حقوقها داخل مجتمعات تطغى عليها البنى الذكورية . ومع ذلك ، لم يكن هذا الأدب تقليدًا أعمى للحركات النسوية الغربية ، بل استمدَّ خصوصيته من بيئته الثقافية والاجتماعية ، وركَّز على قضايا محلية تتعلَّق بالهوية ، وتقييد الحريات ، ورفض التقاليد التي تقصي المرأة من المجال العام ، وهو ما يتجلى في أعمال عدد من الكاتبات العربيات أمثال : نازك الملائكة ، نوال السعداوي ، غادة السمان ، أحلام مستغانمي ، ربيعة جلطي ، وغيرهن ممَّن أسهمن في إثراء المشهد الأدبي العربي بأعمال تعبِّر عن تطلعات المرأة ومعاناتها .

وقد صاحب تطور الرواية النسوية اهتمام متزايد من قبل الباحثين ، الذين سعوا إلى تحليلها من زوايا مختلفة ، اعتمادًا على مناهج نقدية متنوِّعة؛ من بينها المنهج الاجتماعي الذي يربط النص بسياقه الثقافي ، والمنهج النفسي ، الذي

يحلل التوترات الداخلية للشخصيات النسوية ، إضافة إلى المنهج النقدي النسوي الذي يسعى إلى تفكيك الصور النمطية للمرأة داخل النصوص الأدبية ، وإبراز مساهمة الكتابة في إعادة تشكيل الوعي الاجتماعي .

وانطلاقًا من هذه الخلفية ، تسعى هذه المداخلة الموسومة بـ "الرواية النسوية كفضاء لتفكيك الأنساق الثقافية " إلى اكتشاف كيف توظف الرواية النسوية أدواتها السردية لفضح البنى الثقافية الذكورية المهيمنة ، والعمل على تفكيكها عبر إعادة تشكيل الوعي بالهوية النسوية ، ونقد التقاليد التي تعيق تحرر المرأة . كما تهدف إلى الكشف عن الكيفية التي تتحول بها الرواية إلى خطاب اجتماعي واعٍ ، يسهم في كسر الحواجز الفكرية الراسخة ، وإعادة بناء المفاهيم الثقافية المتعلقة بالأنوثة ، والجسد ، والسلطة والدور الاجتماعي للمرأة . ومن هنا تبرز الإشكالية المحورية التي تحاول هذه الخدمات معالجتها :

– هل تعد الرواية النسوية مجرد وسيلة للتعبير عن الذات ، أم أنها خطاب اجتماعي مقاوم يسعى إلى إحداث تحوُّل في البنية الثقافية السائدة ؟

2.مفهوم الأنساق الثقافية :

٢.١تعريف النسق لغة :

يعدُّ مصطلح " النسق " من المفاهيم الغنية دلاليًا ، إذ يحمل معاني متعددة في الاستعمالات اللغوية والأدبية على حد سواء .ومن أجل الوقوف على دلالاته الدقيقة ، ينبغي الانطلاق من معناه اللغوي ، باعتباره المدخل الأول لفهم تجليات المصطلح في مختلف السياقات المعرفية .

في هذا الإطار ، يعرف ابن منظور" **النسق**" بقوله: **النسق من كل شيء: ما كان على طريقة نظام واحد ، عامٌّ في الأشياء ، وقد نسقه تنسيقا ، ويخفف ، ابن سيده : نسق الشيء ينسقه نسقا ونسقه على السواء (...) والتنسيق : التنظيم .**

والنسق : ما جاء من الكلام على نظام واحد "[2]

من خلال هذا التعريف يتَّضح أن مفهوم النسق يرتبط ارتباطًا وثيقًا بفكرة التناغم والترابط بين العناصر المكوِّنة له ، إذ يشير إلى وحدة منتظمة تتسم بالاتساق ، سواء في الكلام أو الأشياء أو في المفاهيم.كما أن العلاقة بين "النسق" و " التنسيق" تبرز البعد المنظِّم الذي يحكم وجود العناصر ضمن نسق معين ، ما يدل على أن النسق ليس مجرد تجمع ، بل بنية منظمة تتسم بالتكامل .

وبناء عليه نستنتج أن " النسق " يعبر عن مبدأ الترتيب والتكامل والانسجام ، ويمكن تطبيقه في مجالات متعددة كالفكر ، والثقافة واللغة ، حيث يعكس بنية تحكم الظواهر بشكل منظم ومنسق.

٢.٢تعريف النسق اصطلاحًا:

بعد ضبط المعنى اللغوي، يصبح من الضروري الانتقال إلى البعد الذي يكتسب فيه النسق أبعادًا معرفية مركبة ، إذ يرتبط بمجالات متعددة كالأدب والفكر وعلم الاجتماع. ويعد ميشال فوكو من أبرز من تناولوا هذا المفهوم، حيث عرفه بقوله أنه مجموعة :" **علاقات تستمر وتتحول بمعزل عن الأشياء التي تربط بينهما "**[3].

يظهر هذا التعريف أن النسق في نظر فوكو يتجاوز مستوى العناصر المكونة له ليركز على طبيعة العلاقات التي تربط بينهما ، وهو بذلك يقدِّم تصورا ديناميكيًا للنسق بوصفه شبكة من التفاعلات القادرة على الاستمرار والتغيير حتى في حال تغيرت مكوناتها . ومن هنا يمكن فهم النسق كإطار غير مرئي يحكم العلاقات داخل نظام معين بما يحمله من ثبات وتحول في آن واحد.

كما يقدم محمد مفتاح تعريفها للنسق يركز فيه على الجانب البنيوي ، إذ يقول: " **مهما اختلفت تعريفات النسق فإنه كان مؤلف من جملة أو عناصر أو أجزاء تترابط فيما بينها ، وتتعالق لتكون تنظيما هادفا إلى غايته ، وهذا التجديد يؤدي إلى نتائج عديدة** "[4].

انطلاقًا من هذا التعريف ، يتضح أن النسق بنية وظيفية متكاملة تتألف من وحدات مترابطة ومتداخلة ، غايتها تحقيق هدف محدد ، ويؤكد مفتاح على الطابع الحي والمتفاعل للنسق ، ما يعكس قدرته على التكيف مع المتغيرات دون أن يفقد انسجامه البنيوي .

٣.٢ تعريف الثقافة :

تعد الثقافة من المفاهيم المحورية في الدراسات الإنسانية والاجتماعية، لما لها من أثر عميق في تشكيل وعي الأفراد والمجتمعات ، فهي تجسد أنماط التفكير والسلوك والعادات والتقاليد التي تميز جماعة بشرية عن غيرها. ونظرا لتعدد دلالات هذا المفهوم وتشعبه حظي باهتمام بالغ من المفكرين. ومن أبرز التعريفات الكلاسيكية للثقافة ما قدمه إدوارد تايلور الذي يقول أن الثقافة هي" **ذلك الكل المركب الذي يشمل : المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق و القانون والعرف وجميع المقدسات والعادات الأخرى التي يكتسبها الانسان من حيث هو عضو في المجتمع** "[5]

يحمل هذا التعريف دلالات شمولية ، إذ ينظر إلى الثقافة بوصفها كلاً متكاملاً يضم مختلف جوانب الحياة الإنسانية ، سواء المادية أو الرمزية . ويمكن القول إن تايلور يبرز الطابع المكتسب للثقافة ، فهي لا تولد مع الإنسان ، بل تكتسب من خلال الانخراط في الحياة الاجتماعية. وبهذا ، تعد الثقافة نظاما ديناميكيا يعكس تفاعل الإنسان مع بيئته، ويشكل هويته عبر الزمن .

٤.٢ تعريف الأنساق الثقافية :

في ضوء ما تقدم من تعريفات للثقافة والنسق، تتجلى الأنساق الثقافية بوصفها نقطة التقاء بين البعدين: فهي تمثل البنية التي تنبثق من التفاعل بين القيم ،والمعتقدات ، والرموز والسلوكيات ، التي تشكل الإطار المرجعي لسلوك الأفراد داخل المجتمع وفي هذا السياق، يعرف عبد الله الغذامي الأنساق الثقافية بقوله: "**الأنساق الثقافية هذه أنساق تاريخية أزلية وراسخة لها الغلبة دائما ، وعلامتها هي اندفاع الجمهور إلى استهلاك المنتوج الثقافي المنطوي على هذا النوع من الأنساق ، وكلما رأينا منتوجا ثقافيا أو نصا يحظى بقبول جماهيري عريض وسريع فنحن في لحظة من لحظات الفعل النسقي المضمر الذي لابد من كشفه والتحرك نحو البحث عنه ... وقد يكون ذلك في الأغاني أو في الأزياء أو الحكايات والأمثال مثلما هو في الأشعار والإشاعات والمكان** "[6]، حيث أن الغذامي يركز في تعريفه للأنساق الثقافية على طابعها التاريخي والراسخ ، ويشير إلى تأثيرها العميق في تشكيل ذائقة الجمهور وتوجيه استهلاكهم للمنتوج الثقافي .

ومنه فإن الأنساق الثقافية تمثل بنى عميقة تعمل على توجيه السلوك الجمعي بشكل غير واع ، وهي تتجسد في المنتجات الثقافية التي تحظى بقبول واسع ، وبالتالي فإن دراسة هذه الأنساق وتحليلها ضروري لفهم ديناميات الثقافة وآليات تأثيرها على الأفراد والمجتمعات .

كما ويقدم أحمد يوسف عبد الفتاح بدوره تعريفا يؤكد الطابع الوظيفي للأنساق الثقافية، فيقول:" **الأنساق الثقافية بمثابة قوانين وتشريعات أرضية من صنع الانسان لضبط نفسه ولتصريف أموره في الحياة ، وهي تعبير عن تصوير الانسان القديم لما ينبغي أن تكون عليه الحياة ، والأنساق الثقافية قابلة للتصور شأنها شأن كل عناصر الحياة** "[7]، وبالتالي ، يشير هذا التعريف إلى أن الأنساق الثقافية ليست مجرد أنظمة جامدة ، بل هي نتاج فكري يستجيب لحاجات الإنسان الوجودية، وتُجسِّد محاولته لتنظيم حياته وفق تصورات معيارية . ومن ثم ، تعد الأنساق الثقافية أدوات معرفية واجتماعية توجه الأفراد وتسهم في تشكيل وعيهم وطرق تفكيرهم .

وبناء على ما سبق، يمكن اعتبار الأنساق الثقافية بنى متجذرة في الوعي الجمعي ، تتحكم في آليات إدراك الواقع ، وتعيد إنتاج مفاهيم الهوية ، والمكانة ، والسلطة ، بما يجعل دراستها وتحليلها ضرورة لفهم الديناميات الثقافية والاجتماعية داخل أي مجتمع .

٣. قراءة في رواية " عايشة " لحواء حنكة :

تدور أحداث رواية " عايشة " للكاتبة حواء حنكة في منطقة تدعى " أعميش " ، وهو الاسم القديم لمنطقة " رباح " التابعة لولاية الوادي بالجزائر. في هذه المنطقة يسود نمط عيش بسيط ، يتميز بحياة أهلها المتواضعة، كما يغلب على المجتمع طابع التحفظ الشديد في عاداته وتقاليده.

تسلط الرواية الضوء على شخصية " عايشة "، التي ولدت بإعاقة ذهنية تطوَّرت لاحقًا إلى تخلُّف عقلي، حيث نشأة في كنف جدتها " القادة " التي تولَّت تربيتها بعد أن تركها والداها وهاجرا للعمل خارج البلاد. وبسبب معاملة الجدة القاسية، كانت عايشة تجوب الشوارع بحثا عن الطعام، وسط ملاحقة الصبية لها، منادين إياها بـ " عايشة العقونة ".

تتعرض عايشة لاحقًا للاغتصاب من قبل " الحلاق عباس "، الذي أراد التأكد من قدرته على الإنجاب بعد فشله الطبي وإنفاقه جميع موارده المالية التي كان يجنيها من عمله في المحل. لكن زوجته " حورية " وصديقه " صالح " –وهو رجل ذو أصول تشادية – يكتشفان الجريمة التي ارتكبها. هذا ما يدفع " عباس" إلى الانتحار ندمًا ، بينما تحمل "عايشة" بطفل منه ، على الرغم محاولات جدتها المتكررة لإجهاضه، لكن دون جدوى .

في نهاية الرواية، يهرب"صالح" مع "عايشة" ، ثم يعود لاحقًا إلى القرية ومعه ابنتها، دون أن يتم ذكر مصير عايشة بشكل واضح .

١.٣ تفكيك الأنساق الثقافية في رواية عايشة لحواء حنكة :

تعد رواية عايشة لحواء حنكة من أبرز الأعمال الأدبية النسوية التي تسلط الضوء على الأنساق الثقافية السائدة في المجتمع الجزائري، وتحديدا في منطقة "أعميش". إذ تعكس الرواية طبيعة العلاقة بين المرأة والأنساق الثقافية الموروثة، مثل الأنساق الاجتماعية ، والدينية ، والأخلاقية ، التي تفرض على النساء من خلال الأعراف والتقاليد الثقافية الراسخة في الوعي الجماعي .

من خلال السرد، تكشف لنا الكاتبة عن مدى تأثير هذه الأنساق في تشكيل هوية المرأة وتحديد أدوارها الاجتماعية، حيث تُظهر الرواية معاناة المرأة والفئات المهمشة من القيود التي تُكرّس التبعية وتعمّق الاستيلاب. وتقدم شخصية "عايشة" بوصفها نصًا يعيد قراءة هذه الأنساق الثقافية، مما يتيح فرصة لتفكيكها ومساءلتها.

وعليه، سنقف عند أبرز هذه الأنساق في الرواية لنكتشف أبعادها وتأثيرها على الشخصيات ومسارات الأحداث، ومحاولة فهم الكيفية التي يعيد بها السرد النسوي قراءة هذه الأنساق وتحليلها، في ضوء نقدي يمهد لفهم أعمق لديناميات السلطة والهوية داخل البنية الثقافية للمجتمع.

٢.٣ تفكيك المركزية :

أ- نسق الفحولة :

يعد نسق الفحولة مفهومًا اجتماعيًا وثقافيًا يتجاوز البعد البيولوجي للذكورة، ليصبح إطارًا رمزيًا يحدد معايير القوة والهيمنة والسيطرة المرتبطة بالرجل في المجتمعات التقليدية. ويتجلى هذا النسق من خلال القيم والممارسات التي تُعلي من شأن الصفات الذكورية، كالقوة الجسدية، والشجاعة، والقدرة على التحكم .

ويتداخل هذا النسق مع البنى الثقافية السائدة، حيث يُستخدم كأداة لترسيخ الأدوار الجندرية التقليدية وتبرير الفوارق بين الجنسين. وفي الأدب، يعد نسق الفحولة جزءًا من البناء السردي، إذ يظهر في تصوير الشخصيات الذكورية وطبيعة علاقتها بالآخرين، مما يجعله مجالاً غنيًا للتحليل الثقافي والنقدي.

وهذا ما توضحه لنا رواية عايشة لحواء حنكة من خلال توظيفها لنسق الفحولة، وذلك عبر طريقة تقديم الشخصيات الذكورية والأنماط السلوكية المرتبطة بها، إلى جانب التفاعل مع الشخصيات النسائية، وكيفية تجسيد العلاقة بين الجنسين.

تُجسد لنا الرواية شخصية " عباس" بوصفه رمزًا لنسق الفحولة التقليدي، من خلال ربط الرجولة بالقدرة على ، حيث جاء في النص:" **متزوج منذ عشرين عاما لكنه لم يرزق بالأولاد ، ورغم زياراته المتعددة للأطباء وضياع جميع موارده المالية التي يربحها من المحل ، إلا أن النتيجة دوما نفسها " عقيم " أو " عاقر " كلا الكلمتين تزعجه لذا كان يوهم رفاقه أن زوجته هي العاقر ، ورفاقه يعلمون أنه هو ، فكم من مرة وصلهم خبر هروبها من بيت الزوجية تطلب الطلاق ، ولم يطلقها ، لكنهم لا يبدون له ذلك خوفا على مشاعره** "[8]

تشير هذه الفقرة من النص إلى هيمنة النظرة الذكورية في المجتمع، حيث يقيَّم الرجل بناءً على قدرته على الإنجاب واستمرارية النسب. كما أن القلق من لفظتي" العقم " أو " العاقر " يعكس الضغوط الاجتماعية المسلطة على كل من الذكور والإناث لتأدية أدوارهم الإنجابية. إذ يبرز النص لنا قلق الرجل من نظرة المجتمع إليه كونه غير قادر على الإنجاب. مما يدفعه لتشبث بزواجه، أو التفكير في التعدد، خوفا من فقدان مكانته الاجتماعية.

فالضغوط الاجتماعية تؤثر بشكل عميق في تشكيل القرارات الشخصية، إذ تصبح السمعة أهم من المشاعر الفردية. وبذلك، يلجأ الرجل العقيم في المجتمعات ذات الهيمنة الذكورية إلى إلقاء اللوم على زوجته وإخفاء عجزه، حفاظًا على صورته أمام الآخرين. وهذا يبرز نسقًا يرسّخ موقع الرجل كفاعل مركزي، ويدفعه إلى التبرير، حتى حين يكون هو سبب العقم.

في المقابل، تغيب وجهة نظر الزوجة في السرد، ما يشير إلى مركزية الرجل في اتخاذ القرارات المصيرية، ويرسّخ تصوير المرأة " العاقر" كسبب وحيد للمشكلة. وهو ما يعبر عن نسق ثقافي يحمّل المرأة مسؤولية الإنجاب، دون مساءلة دور الرجل.

وبالتالي، يصوّر النص لنا أن الزواج لم يعد مسألة شخصية، بل تحوَّل إلى شأن اجتماعي، نتيجة تدخل الجماعة في تقييم كل من الرجل والمرأة بناءً على قدرتهم على الإنجاب.

٣.٣ البنية الطبقية :

أ – نسق التمييز العنصري :

يرتبط هذا النسق بآليات القمع والتفريق الاجتماعي التي تُمارس بناءً على العرق أو اللون أو الأصل الإثني، حيث يهمَّش الأفراد أو الجماعات وفقا لانتمائهم العرقي.

ويتجلى هذا النسق في الرواية من خلال شخصية " صالح "،التي وصفت في النص على النحو الآتي: " **صالح رجل زنجي أسود ، عائلتهم الوحيدة بالمنطقة التي تحمل هكذا بشرة ، مع أنه يحمل نفس اللقب معهم ، يقال في حكاياهم أن جده من أصل تشادي كان عبدا عند جدهم ، جلبه من رحلاته إلى الدبداب حيث كان يقتني الأسلحة والبارود ، أعتقه فيما بعد ومنحه لقبه** "[9]،

يشير هذا الوصف إلى ترسُّخ معاناة اجتماعية ناتجة عن إرث العبودية والتمييز العنصري، ويعكس في الوقت نفسه منظومة القيم الثقافية والاجتماعية التي توظِّف العرق كعامل للتصنيف وترسيخ الهيمنة. إذ يستبطن النص موروثا عنصريًا يقصي الآخر بناءً على اللون والانتماء الإثني، ويكرّس دونية جماعات بعينها حتى وإن تم دمجها شكليا ضمن المجتمع .

٤.٣ تحليل الرموز الثقافية :

أ– الأسماء:

يعكس النص أهمية الأسماء في الثقافة المحلية بوصفها تعبيرًا عن الظروف الحياتية والاجتماعية للأفراد، إذ تشكِّل التسمية وسيلة لربط الفرد بمحيطه الثقافي ومعتقداته الشعبية. وهذا ما جاء في نص الرواية ، حيث يقول : " **يسمي أهل أعميش أغلب بناتهم ، تبعا لما تترتب عليه ظروفهم الحياتية ، فإن أنجبت الأم الإناث فقط سموا بنتا الحادة ليحد انجابهن ، وإن أطالت المكوث في بطن أمها أكثر من تسعة أشهر سموها النايمة ، وإن ولدت بيوم مدير سموها أمطيرة ، وإن اشتكوا قلة الرزق سموها ربح** "[10].

تجسِّد هذه التسميات العلاقة بين الاسم والواقع المعيشي، إذ تتخذ التسمية طابعًا دلاليًا يعبِّر عن الأزمة أو التطلُّع أو المعتقد الشعبي. كما تعكس تلك الأسماء تمييزًا جندريًا واضحًا، إذ تُختزل الطفلة في رمز المعاناة أو رغبة أو ظرف خارجي، ما يفضي إلى تجريدها من فردانيتها. من خلال أسماء مثل : ربح ، أمطيرة ، عايشة، تدل على أدوار نفعية أو وجودية تحمِّلها الأنثى منذ ولادتها، مما يبرز البنية الأبوية العميقة داخل النسق الثقافي المحلي.

ب–الرموز الشعبية :

١– نسق الطب الشعبي:

يعدُّ نسق الطب الشعبي نظامًا ثقافيًا يعبر عن الممارسات والتقاليد المرتبطة بالرعاية الصحية والعلاج في المجتمعات المحلية، حيث يستند إلى المعرفة التقليدية المتوارثة، ويعتمد على الموارد الطبيعية المتاحة. ويشكِّل هذا النسق امتدادًا لتجارب الأجداد في التعامل مع المرض من خلال استخدام الأعشاب ، النباتات ، الزيوت الطبيعية كأدوات علاجية ، تكون هذه المواد متوفرة في البيئة المحلية. وقد ورد في الرواية ما يلي:" **ظلت الجدة تضمد لها الجرح وترش عليه كل ليلة دقيق نبتة " الخياطة " ، تعلمت هذا من أمها حين كانوا يرتحلون مع ماشيتهم وجمالهم إلى الصحراء ... لذا كانت تبحث دوما بين الخضرة عن هذه النبتة ونباتات أخرى للتطبيب ، وحين تجمعها تضع كل نوع في خرقة وتدقه بحجر حتى يصير رطبا ، ثم تربط الخرقة وتعلقها بأعلى الخيمة ، وهي تتذكر جيدا أنها استخدمت هذه النبتة كثيرا ، وقد اثبتت نجاعتها في خياطة الجروح ، بحيث لا يمر يومان أو ثلاث حتى يلتئم الجرح "**[11].

يعبر هذا المشهد عن ممارسة علاجية تجسد معرفة شعبية عريقة، قائمة على تقنيات تقليدية (كالتجميع ، الدق ، التعليق ...) تستمد من البيئة الطبيعية. ويبرز هذا التصور الدور المركزي للمرأة – الجدة – كحافظة للمعرفة وممارسة لسلطة علاجية لا تقل أهمية عن السلطة الطبية الحديثة في السياقات الريفية والمعزولة.

ج– الإشارات الدينية :

١–النسق الديني الرمزي :

هو منظومة ثقافية تستند إلى الرموز والمعاني الروحية التي تستخدم للتعبير عن القيم والمعتقدات داخل المجتمع. وتشمل هذه الرموز : الطقوس ، والشعائر ، والأماكن المقدسة ، والأفعال التعبدية التي تنقل التصورات الدينية وتؤسس لسلطة رمزية.

وقد اتخذت الرواية من شخصية " الدرويش" رمزا دينيًا يعبر عن البعد الروحي والتقديس الشعبي للمتصوِّفة وهذا ما جاء في نص الرواية حيث يقول : " **هذا الرجل الذي تحفظ كلامه كما تحفظ السورة الوحيدة من القرآن ، فهو كثير الزيارة لأهل أعميش ، يعرف كل شيء عنهم وهم بالمقابل لا يخفون عنه حتى صغائر الأمور ، يحكون أنه صار درويشا لأن عقله لم يتحمل غزارة علمه ، حين قدومه إليهم تجده دائم الطواف بين المنازل ، لا تفارقه عصاه وبرنسه وصرة الحلوى التي يوزعها على الأطفال في الأزقة ، يعشق الناس كل الحكايات التي يحكيها ، ولا يرتحلون لتنفيذ نذورهم للأولياء إلا به كدليل روحاني ، لذا تمنت القادة أن تصدق حكاياه ، وتتحول هذه العصا كعصاة موسى إلى حية فتلتهمها لترتاح**"[12].

يصور النص " الدرويش" بوصفه وسيطًا روحانيًا بين الناس والقوى الغيبية، يجسد الحكمة والقدرة على الإرشاد، ويتمتع بمكانة رمزية داخل الوعي الجماعي. كما تكتسب "العصا" التي يحملها دلالة روحية كبيرة لاقترانها بعصى موسى، مما يضفي قديسية على حضوره. ويشير هذا التمثيل إلى تصور شعبي للدين ، لا يستند فقط إلى النصوص ، بل يتجذر في الرموز والسلوكيات اليومية ، ويكرس حضور "المقدس" في تفاصيل الحياة.

٥.٣ دراسة المهمشين :

أ– شخصية القادة :

تعد دراسة الشخصيات المهمَّشة في الأدب واحدة من المداخل الهامة لفهم البنى الاجتماعية والثقافية التي تُقصي بعض الفئات وتضعها على هامش الفعل المجتمعي. فالأدب، بوصفه مرآةً للمجتمع، يعكس تمظهرات التهميش ويميط اللثام عن صراعات الأفراد الذين يعيشون في الظل، ويكشف كيف تسهم الأنساق الثقافية في تكريس هذا التهميش واستدامة.

في رواية " عايشة " للكاتبة حواء حنكة، يتجلى حضور المهمشين من خلال شخصيات نسوية تنتمي إلى الطبقات الاجتماعية المسكوت عنها، ومن أبرزها "القادة"، التي تجسد نموذجًا لامرأة أقصيت من دائرة الاعتراف المجتمعي" **فالقادة ... امرأة في عقدها السادس ، أرملة ، مات زوجها منذ سنوات وهو عائد من الحج ، حين كان الناس يسافرون بالجمال ، غرق في نهر بأرض تونس ، حاولوا نجدته ولكنهم لم يمسكوا بغير عمامته ، تحكي قصته دوما بفخر قائلة :**

غسل ذنوبه بأرض الله ثم غسله النهر وصعد إلى ربه نظيفا ظاهرا وباطنا .

الشيء الذي يحزنها أنها لم تظفر منه سوى بابنة واحدة ، ومع ذلك حافظت على ذكراه ولم تتزوج"[13]

من خلال هذا المقطع، يتضح البعد الإنساني لشخصية" القادة "، التي تمثل صوتًا أنثويًا مهمش داخل مجتمع تقليدي يحاصر المرأة الأرملة بالقيود القيمية والاجتماعية، ويحد من مشاركتها الفعالة في الحياة العامة. لاختيار "القادة" عدم الزواج مرة أخرى لا يقرأ بوصفه قرارًا حرًا فقط، بل يعكس تداخلاً بين الإرادة الشخصية والضغط الاجتماعي المرتبط بأدوار النساء الأرامل في المجتمعات المحافظة .

وبذلك فإن شخصية " القادة " تسلط الضوء على هشاشة الوضع الاجتماعي للنساء الأرامل، وعلى ديناميكيات الإقصاء الرمزي التي تمارس ضد المرأة في غياب الرجل، ما يكشف عن أنساق ثقافية تعيد إنتاج الهامش وتقيد إمكانيات الفعل النسوي في المجتمع.

ب–شخصية عايشة :

يقدم النص السردي في الرواية تمثيلاً غنيًا لشخصية " عايشة"، التي تمثل نموذجًا آخر للتهميش المركب، حيث تتقاطع الجوانب الجسدية والنفسية والاجتماعية في إنتاج صورة أنثى معزولة اجتماعيًا ومقموعة ثقافيًا. يصفها النص كما يلي :" **وأنت ترى عايشة للوهلة الأولى تبدو لك جميلة كجدتها ، وجه خمري أقرب للطول مع عيون صغيرة لامعة وأنف رقيق حاد ، عدا بعض البثور الحديثة المنبت التي تفسد صفاء بشرتها ، إلا أن ابتسامتها البلهاء وحركة يديها الغبية في حك شعرها كلما أدركت أنك تمعن النظر فيها يجعلانك تغير نظرتك سريعا ، فتتلاشى كل ملامح الإعجاب التي قد تكون ارتسمت في مخيلتك.**

تسير بالشارع دوما عارية الرأس ، في الواقع لم يكن شعرها وهو مفرود بوحشية مغريا ، بل من غير الممكن تسميته شعرا أصلا ، يليق تصنيفه إلى باروكة قديمة تشابكت خيوط الشعر فيها "[14]

تحمل هذه الفقرة دلالات قوية حول" النسق الجسدي"، حيث يعاد إنتاج التهميش من خلال النظر إلى الجسد. فملامح عايشة، التي قد تبدو في البداية جذابة، سرعان ما يتم تحييدها بفعل الوصف السلبي لطريقة تصرفها ومظهرها الخارجي، مما يعكس مدى رسوخ المعايير الجمالية الاجتماعية التي تقيِّمُ النساء وفق مظهرهن، وتقصي من لا يتوافق مع هذه المعايير.

وتظهر" عايشة" كشخصية موصومة اجتماعيًا، تتلقى نظرات الرفض والسخرية ، في جلٍّ واضح للوصم الذي تلحقه المجتمعات بالأشخاص الذين لا ينضبطون للأنساق القيمية المهيمنة. وبذلك، تمثل "عايشة" تجليًا للتهميش المتعدد الأبعاد الذي يتقاطع فيه الجسد، والنفس، والجندر، ضمن بنية اجتماعية محافظة.

٤. خاتمة:

في ختام هذه الدراسة يمكن النظر إلى رواية " عايشة " لحواء حنكة بوصفها فضاءً سرديًا مفتوحا على مساءلة الأنساق الثقافية المهيمنة داخل المجتمعات التقليدية، حيث تبرز الكاتبة حواء حنكة من خلال تقنية السرد النسوي تفاصيل الحياة اليومية التي تشي بالهيمنة الذكورية وتظهر القمع البنيوي الممارس على المرأة. فالنص يكشف عن أوجه التمييز الاجتماعي والجندري من خلال مستويات رمزية متعددة، بدءًا من الأسماء التي تمنح للفتيات، كعلامة دلالية تحمل قيودا رمزية ، وصولا إلى نظرة المجتمع للجسد الأنثوي كحقل للهيمنة والاستغلال.

كما تظهر الرواية هشاشة المكانة الاجتماعية للنساء، خاصة الأرامل أو المختلفات في الهيئة أو السلوك، وتعري التناقضات التي تحكم المنظومة التقليدية، حيث تمارس أشكال متنوعة من العنف الرمزي والمادي في الوقت الذي تغلف فيه قضايا مثل الرجولة والعقم بهالة من الصمت والتكتم .

ومن هذا المنطلق، فإن رواية "عايشة" تسهم في تفكيك البنى الذهنية السائدة، وتدعوا إلى إعادة النظر في منظومة القيم الثقافية من خلال تقديم صوت أنثوي يعبر عن التجربة النسائية من الداخل، بما يجعلها أداة نقدية فاعلة تفتح أفاقًا لتحولات في الوعي الجماعي وبذلك يمكن استخلاص أن:

-الرواية النسوية تعمل على تفكك الأيديولوجيات التي تكرس الهيمنة الذكورية.

-تمنح المرأة مساحة للتعبير عن معاناتها وتجاربها المسكوت عنها.

-تفضح الأنماط الثقافية الإقصائية التي تمارس على النساء.

- تعيد تعريف دور المرأة باعتبارها فاعلاً اجتماعيًا كاملاً، لا تابعًا خاضعًا.

5.الهوامش:

[1]- بام موريس ، الأدب والنسوية ، تر : سهام عبد السلام ، المجلس الأعلى للثقافة ، د.ط ، شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة القاهرة ، 2002 ص 38

[2]- ابن منظور ، لسان العرب ، دار المعارف ، د.ط ، كورنيش النيل – القاهرة ص ٤٤١٢

[3]سعيد علوش ، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة ، دار الكتاب اللبناني ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م ص ٢١١

[4]محمد مفتاح ، النص من القراءة إلى التنظير ، شركة للنشر ، مغرب ، ط١ ، ٢٠٠٠ ص ٤٩

[5]زيودين ساردار وبورين ڤان لون ، أقدم لك الدراسات الثقافية ، تر : وفاء عبد القادر ، المجلس الأعلى للثقافة ، شارع الجبلابة بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة ، ٢٠٠٠ ص ٨

[6]عبد الله الغذامي ، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية ، دار المركز الثقافي العربي ، ط٣ ، المغرب ، ٢٠٠٥ ص ٧٩ ٨٠

[7]أحمد يوسف عبد الفتاح ، لسانيات الخطاب وأنساق ثقافية ، دار منشور الاختلاف ، ط١ ، بيروت ، ٢٠١٠ ص ١٥١

[8]حواء حنكة ، عايشة ، الرابطة الولائية للفكر والابداع بولاية الوادي ص ٢٢

[9]حواء حنكة ، عايشة ص ٤٩

[10]المصدر نفسه ص ٨

[11]حواء حنكة ، عايشة ص ١٨

[12]حواء حنكة ، عايشة ص ١٢

[13]حواء حنكة ، عايشة ص ١١

[14]المصدر نفسه ص ١٣

6. قائمة المراجع:

-أحمد يوسف عبد الفتاح ، لسانيات الخطاب وأنساق ثقافية ، دار منشور الاختلاف ، ط١ ، بيروت ، ٢٠١٠

-ابن منظور ، لسان العرب ، دار المعارف ، د.ط ، كورنيش النيل – القاهرة

-بام موريس ، الأدب والنسوية ، تر : سهام عبد السلام ، المجلس الأعلى للثقافة ، د.ط ، شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة ، 2002 أحمد يوسف عبد الفتاح ، لسانيات الخطاب وأنساق ثقافية ، دار منشور الاختلاف ، ط١ ، بيروت ، ٢٠١٠

-زيودين ساردار وبورين ڤان لون ، أقدم لك الدراسات الثقافية ، تر : وفاء عبد القادر ، المجلس الأعلى للثقافة ، شارع الجبلابة بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة ، ٢٠٠٠

-حواء حنكة ، عايشة ، الرابطة الولائية للفكر والابداع بولاية الوادي

-سعيد علوش ، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة ، دار الكتاب اللبناني ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م

-عبد الله الغذامي ، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية ، دار المركز الثقافي العربي ، ط٣ ، المغرب ، ٢٠٠٥

-محمد مفتاح ، النص من القراءة إلى التنظير ، شركة للنشر ، مغرب ، ط١ ، ٢٠٠٠